الحجاج في مقالات الشّيخ عبد الرّحمان شيبان
«حقائق وأباطيل» أنموذجا

فرحات بلولي(*)

ملخص:

تتناول هذه الدّراسة موضوع الخطاب الإصلاحيّ الجزائريّ ممثلا في المقالات الصّحافيّة لأحد رموزه؛ وهو الشّيخ عبد الرّحمن شيبان، وقد حاولنا أن ندرس فيها استراتجيات الحجاج بمنظور نظرية السّلالم الحجاجيّة التي وضعها اللّغويّ الفرنسيّ (أوزفالد ديكرو-Oswold Ducrot).

Abstract:

The subject of this study is the Algerian reforming discourse represented by one of his symbols who is the sheikh Abd Rahmane Chibane, we tried to study his argumentative strategies using the conception of argumentative scale theory founded by the French linguist Oswold Ducrot.

مقدمة:

انتشرت التّداوليّة في الأوساط العلميّة مع النّصف الثّانيّ من القرن الماضي، فجاءت بالعديد من الأفكار التي تحاول فهم جوهر اللّغة البشريّة والخطابات بشكل عام، وقد تعددت التّداوليات تعددا كبيرا، فتخصص كلّ باحث في واحدة منها أو أكثر، ثم راح ينجز حفرياته وفق إجراءات التّوجه أو التّوجهات التي تبناها، ومن أبرز هذه التّداوليات ما يسمى ب(دراسات الحجاج) التي لا تخلو -أيضا- من التّعدد حيث تنطلق منطلقات متعددة لفهم استراتجيات الإقناع والتّأثير بين المتخاطبين، وفي هذا الفضاء العلميّ بالضّبط، توجهنا إلى انجاز قراءة لبعض مقالات الصّحافة الإصلاحيّة التي كتبها أحد أقطاب حركة الإصلاح في الجزائر؛ وهو الشّيخ عبد الرّحمن شيبان، وسنحاول في هذه المقالة وصف وتحليل استراتجيات الحجاج التي اعتمدها في نصوصه، فما هي هذه الاستراتجيات؟ وعلى أي منوال يتم بناء حجاج الخطاب الإصلاحيّ؟ تلك أهم الإشكاليات التي سنفصل فيها تبعا في هذا العمل.

* استاذ محاضر-ب- ، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة أكلي امحند أولحاج -البويرة.

1. **مفهوم الحجاج:** يتداول الدّارسونفي ميدان الدّراسات اللّغوية والأدبيّة مفهوم الحجاج بطرق مختلفة ومتعددة تعدد الدّارسين أنفسهم؛ فما هي حدود هذا النّوع من الدّراسات؟

1.1: تعريف الحجاج ونشأة الدّراسات المتعلقة به: يُشكل البحث عن حدود المفاهيم أمرا إجرائيّا لا مفر منه، وسنقوم بذلك انطلاقا من بيان تعريف الحجاج، ونتبع مراحل نشأة دراسته.

1.1.1: تعريفه: يرى معجم التّداوليّة أنّ «الحجاج يمثل بالنّسبة للمتحدث - بشكل عام- اقتناع أو إقناع المرسل إليه عن طريق استعمال الحجج»[1] ويمكن أن نلاحظ –هاهنا- أنّ الحجاج يفترض مرسلا ومرسلا إليه ومجموعة من الحجج، وهو ما يمثل ثالوث مثلث الحجاج، كما يجب الإشارة إلى أنّ الحجاج قد يكون اقناعيّا؛ حين استعمال المرسل لمجموعة من الحجج الموضوعيّة المعقولة، لكن يمكن أن يكون الحجاج اقتناعيّا (persuasif) حين استعماله لحجج مثيرة للعواطف والأحاسيس لدى المرسل إليه.

وقد شهد مفهوم الحجاج انتشار واسعا في العالم العربيّ، فتحدث في تعريفه الكثير من الباحثين؛ نذكر منهم الباحث المغربي طه عبد الرّحمن الذي يعتقد أنّه «كلّ منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها»[2] فمن حيث المبدأ، لا يخرج هذا التّعريف عن التّعريف السّابق؛ لأنّ العمليّة الحجاجيّة ثلاثيّة الأضلاع؛ فيها مرسل ومرسل إليه وحجج تساند دعوى معيّنة -على حد تعبير طه عبد الرّحمن- لكن هذا التّعريف يضيف لنا معلومة ذات أهميّة يجب الالتفات إليها؛ وهي إمكانية الاعتراض على الدّعوى أو الحجج التي تُساق أثناء توجيه الكلام، وهذا الاعتراض قد ينتج دعوى أخرى بحجج أخرى، ومن هنا يأتي التّمييز، في ما بعد، بين مفاهيم عدة كالحجاج والجدل والخطاب، ونظن أنّ ذلك عائد في أكثره إلى هذا الجزء من التّعريف.

2.1.1: نشأة الدّراسات المتعلقة بالحجاج: لم تكن دراسات الحجاج من حيث ظهورها كدراسة مستقلة وليدة الأزمنة القديمة؛ إذا نظرنا إليها من حيث هي

1- Julien Longhi, Georges Sarfati, Dictionnaire de pragmatique, Paris: 2011, Armand Colin, p 21.

2- طه عبد الرّحمن، اللّسان والميزان أو التّكوثر العقليّ، ط 01، الدّار البيضاء/ المغرب: 1998م، المركز الثّقافي العربي، ص 226.

دراسة، لكن جذورها كانت موجودة في التّراث العلميّ العالميّ القديم، سواء منه اليونانيّ-اللاتينيّ أو الإسلاميّ.

عرفت، في هذا الاتجاه من التّحليل، الحضارة الأوربيّة القديمة الكثير من الاهتمام بفن الخطابة، وكان الاهتمام -أساسا- بالبلاغة كعلم قائم يهتم بشرح قوة اللّغة وأسباب تأثيرها في المتلقي، وقد سبق لأرسطو أن ميّز بين الجدل والخطابة، ثم حدد موضع المحاج في كلّ فضاء من هذين الفضاءين؛ فقال إنّ المحاج موجود في الخطابة والجدل معا[1] لكن طبيعة المحاج في الخطابة مختلفة عن مثيلتها في الجدل، فالمحاج في الخطاب ينزع إلى التّأثير على العواطف بالإيهام والتّحريض... أما المحاج في الجدل، فيعتمد المحجج الموضوعيّة.

ولم تعرف الدّراسات الأوربيّة المحاج كفضاء علميّ واضح المعالم إلا في النّصف الثّانيّ من القرن الماضيّ؛ وذلك بظهور عدة أعمال تعيد الاعتبار له وتشير الأدبيات إلى مؤلفين لم يبلغ غيرهما المرتبة التي وصلا إليها؛ وهما كتاب:« The use of arguments- في استعمال المحجج» ل (س. تولمين- S. Toulmin) (1958م) و«Traité de l'argumentation– مصنف في المحاج» ل(C. Perelman, L.O.Tyteca) (1958م) واللّذين أعادا للبلاغة بريقها؛ بعدما ضيعته لقرون خلت.

وقد اعتبر (تولمين) في عمله أنّ المحاج، في أحواله العاديّة، خطاب يرسله مرسل إلى مرسل إليه؛ لكن في إطار وضعيّة خطابيّة ما، وهو ما يوجزه في التّرسيمة التّاليّة[2]:

1- سعيد فاهم، معاني ألفاظ المحاج في القرآن الكريم وسياقاتها المختلفة (السّور السّبع الطّوال أنموذجا "دراسة دلاليّة معجميّة") تيزي وزو/ الجزائر: 2012م، منشورات مخبر الممارسات اللّغويّة في الجزائر، ص 22.

2- Patrick Charaudeau, Dominique Maingueneau, Dictionnaire d'analyse du discours, Paris: 2002, Ed. le Seuil, p 69.

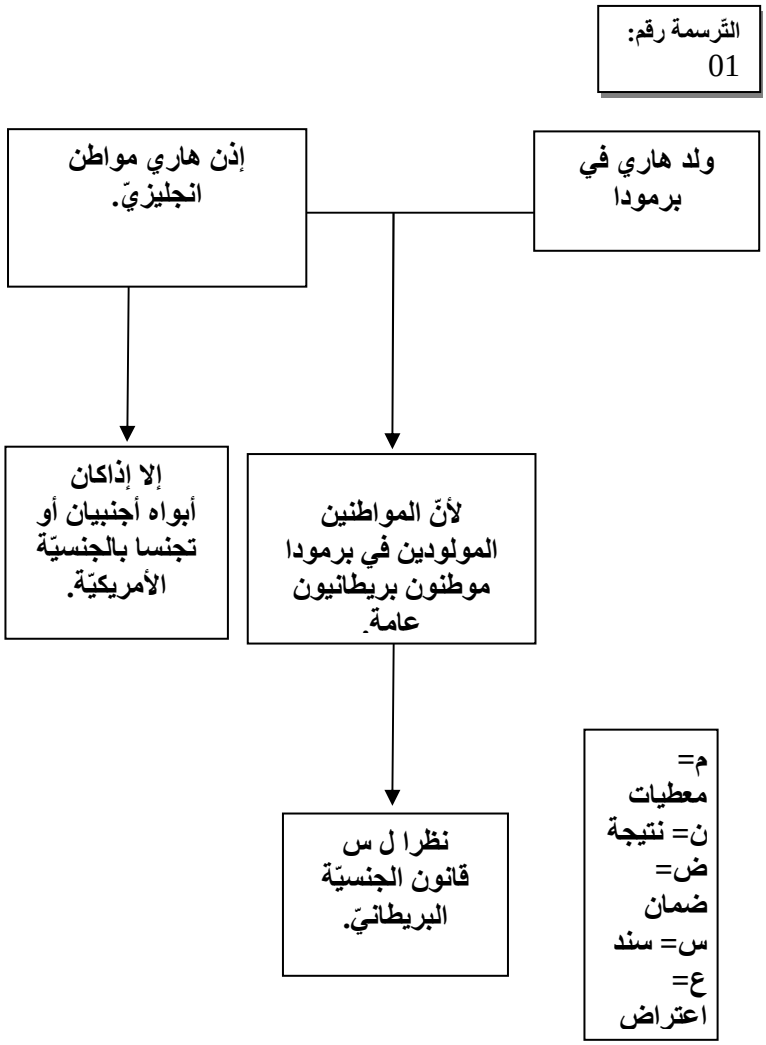

فالعمليّة الحجاجيّة تنطلق من تقديم مجموعة من المعطيات التي توجه المرسل إليه إلى الاقتناع بالنّتيجة، ويكون ذلك بتقديم ضمان ما، مؤيد بسند ما، لكن في بعض الأحوال قد تنتفي النّتيجة لوجود اعتراض، لذلك يجب استنتاج النّتيجة المنفيّة، وليس الايجابيّة، لوجود الاعتراض.

ولا بد من الإشارة إلى أنّ أعمال (تولمين) وغيره من الأوائل الذين أعادوا الاعتبار للحجاج كموضوع للدّراسة قد تطورت في ما بعد، فظهرت نظريات أخرى مثل أعمال (مايير-Mayer) وأعمال (أوزفالد ديكرو-Oswold Ducrot) الذي أسس نظريته الحجاجيّة المسماة (الحجاج في اللّغة) وهي محور ما سيأتي من العمل.

2.1: نظرية الحجاج في اللّغة: تأسست هذه النّظريّة على يد اللّغويين الفرنسيين (أوزفالد ديكرو) و(جون كلود أنسكومبر) من خلال عمل يحمل عنوان (الحجاج في اللّغة-L'argumentation dans la langue) (1983م) لكن سبق ل(ديكرو) أن نشر أعمالا تصب في الاتجاه نفسه مثل كتابه (السّلالم الحجاجيّة- Les échelles argumentatives) (1972م) الذي كان يتحدث عن الطّابع الحجاجيّ للّغة.

1.2.1: التّداوليّة المدمجة والحجاج: تروي الأدبيات أنّ هذه النّظرية تنتمي إلى ما يسمى بالتّداولية المدمجة التي أسسها الباحثان السّابقان، وهي مدرسة تداوليّة تعتقد أنّ الجانب التّداوليّ مدمج في الجانب اللّغويّ.

وترى التّداوليّة المدمجة -على إثر ما سبق- أنّ الحجاج كامن في اللّغة حيث يمكن استنتاجه من البّنية اللّغويّة، فالحجج تأتي إما صريحة، وبالتّالي يمكن تبيّنها بوضوح، أو ضمنيّة[1] تقوم البّنية اللّغويّة بتقديم توجيه معين إليها، سواء عن طريق كلمة أو إحالة... ولا بد -هاهنا- من الإشارة إلى أنّ الحجاج، في منظور هذه النّظريّة، إنّما هو ينتمي إلى الخطاب، لذلك يرتبط أيّما ارتباط باللّغة، عكس البرهان(Raisonnement) الذي ينتمي إلى المنطق... وقد أسست هذه النّظريّة الحجاجيّة للعديد من المفاهيم الإجرائيّة منها: الرّوابط الحجاجيّة، السّلالم الحجاجيّة... وسنركز في ما يلي على السّلالم الحجاجيّة -أساسا-.

2.2.1: نظريّة السّلالم الحجاجيّة: قدم (ديكرو) مفهوم السّلالم الحجاجيّة في إطار كتابه (السّلالم الحجاجيّة) الذي أشرنا إليه، وقد عمد فيه إلى تقديم الجانب النّظريّ والتّطبيقيّ للمفهوم، فما هي أهم المبادئ التي ينبني عليها؟

يحيل مفهوم السّلالم الحجاجيّة إلى فكرة تواجد سُلميّة معيّنة للحُجج في الخطاب، فأثناء إيراد الحجج لا مناص أنّه هناك حجة خادمة للدّعوى أكثر من غيرها، لذلك تجد المتخاطبين يقدمون عناية خاصة لقضايا ترتيب حججهم، لكن

1- سعيد فاهم، معاني ألفاظ الحجاج في القرآن الكريم وسياقاتها المختلفة... ص 31.

السّؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف يمكن دراسة هذه السّلمية التّراتبيّة؟ هو ذا العمل الذي قام به (ديكرو) حيث اقترح جملة من المفاهيم المساعدة على التّحليل؛ نذكر منها:

1.2.2.1: (الفئة الحجاجيّة-Classe argumentative): يتمثل هذا المفهوم في اعتقاد أي مخاطب أنّ حجتين أو أكثر تؤيدان نتيجة واحدة؛ فكل الحجج التي تؤدي بالمرسل إليه إلى قناعة واحدة تنتمي إلى فئة حجاجيّة واحدة.

2.2.2.1: (السّلم الحجاجيّ-Echelle argumentative): يعد هذا المفهوم عصب النّظريّة الأول، ويعني به (ديكرو) أنّ الحجج التي تنتمي إلى فئة واحدة ليست متساوية من حيث القوة؛ أو ليست متساوية من حيث درجة إقناعها للمرسل إليه؛ أو توجيهه إلى النّتيجة المرغوبة؛ لذلك -عادة- ما نقول إنّ هذه الحجة أقوى من تلك لتبرير موقف ما، وقد مثل لذلك بالتّرسيمة التّاليّة[1]:

التّرسيمة رقم:02

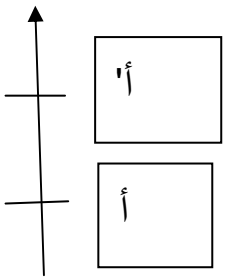

فالحجة (أ) أقل قوة (أضعف) من (أ') إذا كانتا تؤديان إلى نتيجة واحدة، وهذا التّراتب في واقع الأمر ضروري في الحجاج؛ لأنّ الحجج تقيم علاقات ضعف وقوة مع الحجج الأخرى، وهذا سبب وجود الحجاج.

2. مظاهر الحجاج في العيّنة المختارة: سنحاول في هذا الجزء الثّانيّ من البحث تحليل استراتجيات الحجاج في العيّنة التي اخترناها، فلنبدأ بتعريفها أولا.

1.2: تعريف العيّنة: سندرس في هذا العمل أساليب الحجاج في مجموعة من المقالات التي ألفها الشّيخ عبد الرّحمن شيبان (1918م-2011م) وهو أحد رموز التّيار الإصلاحيّ أثناء الفترة الاستعماريّة، ثم من أحد المساهمين في بناء الدّولة

1- Oswald Ducrot, Les échelles argumentatives, Paris: 1980, Ed. Minuit, p 22.

الجزائريّة بعد الاستقلال، وذلك بعلمه وقلمه ودفاعه عن اللّغة العربيّة والإسلام حتى سمي بـ"حارس القيّم الإسلاميّة"[1]، وتقلده العديد من المسؤوليات أهمها تعينه كوزير للشؤون الدّينيّة[2] في الفترة الممتدة بين 1980م إلى سنة 1986م.

وسينصب عملنا على دراسة مجموعة من المقالات الواردة في المؤلف الموسوم: «حقائق وأباطيل» الصّادر عن دار ثالة للنّشر سنة 2009م، وهو مجموعة من المقالات كان الشّيخ شيبان قد كتبها ونشرها في العديد من المجلات والجرائد الجزائريّة والعربيّة منها: (البصائر) و(الشّهاب) و(النّهضة) و(وحي الشّباب)... والتي تمتد زمنيّا على أكثر من نصف قرن، وبالضّبط من أربعينات القرن الماضي إلى بداية القرن الحاليّ، ويبدو أنّ الشيخ عبد الرّحمن شيبان كان يريد الدّفاع على جمعيّة العلماء المسلمين من خلال إعادة نشر هذه المقالات؛ لأنّها تتحدث عن مواقف جد متصلة ببعض الأحداث السّياسيّة الهامة التي حدثت في كلّ الفترة المذكورة، ونظر لهذا الهدف الذي أعلن عنه -صراحة- في مقدمة الكتاب؛ لا بد أنّ هذه النّصوص ستكون ميدانا رحبا لاستعمال الحجج والحجج المضادة، وهو ما سنحاول استجلائه في ما تبقى من المقالة.

2.2: تراتب الحجج: يقترح كلّ موقف من مواقف المتخاطبين عددا معيّنا من الحجج التي تدافع -عادة- على مقام مشترك، كما يعمل المتكلمون على تقديم حججهم مرتبة حسب ترتيبات متعددة، وهو ما يمكن ملاحظته في المثال التالي:

« وأحسن وسيلة تكفل للكُتّاب بأن يؤدوا "مهمتهم" كاملة سالمة، غير منقوصة ولا مثلوبة، إنما هو "التسامح"! فهو الذي يمنح للكاتب الحق في أن يكون حرا في تفكيره، صلبا في عقيدته، لكنه يمنعه، كذلك، من الاعتداء على من يخالفه في رأيه ولا يؤمن بمذهبه...»[3].

يتحدث الشّيخ عبد الرّحمن شيبان في هذه المقالة التي نُشرت سنة 1948م في جريدة (البصائر) عن ضرورة اهتمام الكُتّاب بفضيلة التّسامح أثناء إذاعة انتقاداتهم لمؤلفات غيرهم، وأن يهتموا بالأفكار دون المساس بالأشخاص... ويظهر

1- محمد سيريح:« الشّيخ عبد الرّحمان شيبان: شهادات ومواقف» في البصائر، الاثنين 15-21 شوال 1435هـ/11-17 أوت 2014م، ع: 716، ص 11.
2- عبد الحميد عبدوس:« في ذكرى الشّيخ عبد الرّحمن شيبان» في البصائر، الاثنين 15-21 شوال 1435هـ /11-17 أوت 2014م، ع: 716، ص 03.
3- «الكُتّاب والتّسامح» في: عبد الرّحمن شيبان، حقائق وأباطيل، الجزائر: 2009م، دار ثالة للنّشر، ص 37-38.

في المقتطف الذي أخذناه من المقالة أنّ الشّيخ شيبان اعتمد مجموعة من الحجج للدّفاع على موقفه؛ وهي الحجج التي تبدو متراتبة حسب النّموذج التّالي:

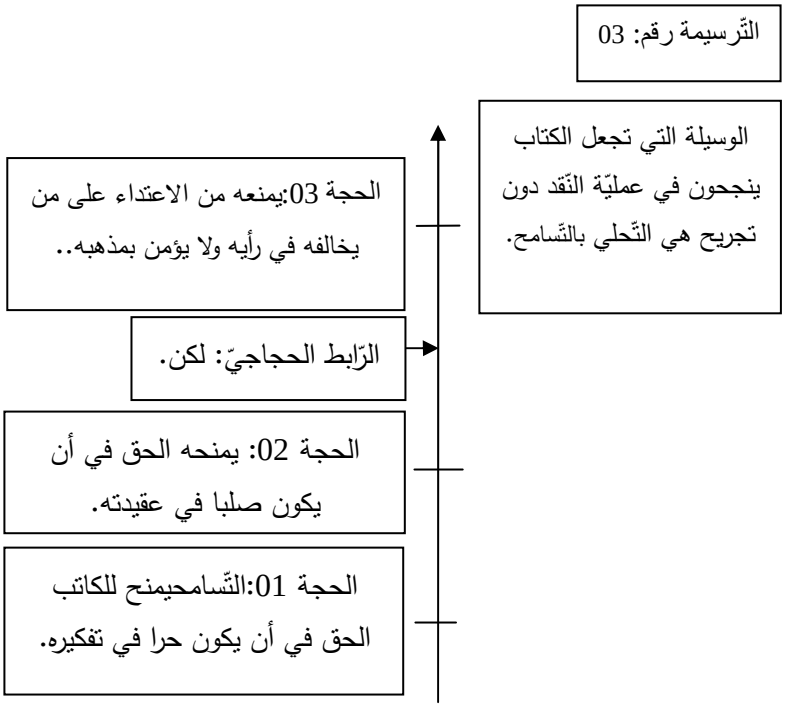

يمكن الملاحظة أنّ التّرسيمة رقم (03) تعرض لنا حجج المقتطف في سلم تصاعديّ؛ تظهر في أسفله أضعف الحجج قوة من بين الحجج المؤيدة للمقام المشترك، وهي (التّسامح يمنح للكاتب الحق في أن يكون حرا في تفكيره) فالنّاقد المتسامح لا يفقد البتة حريته؛ بل بالعكس، يمكنه ممارستها كما يحلو له، ثم يضيف المقتطف حجة أخرى، يبدو من القراءة العامة أنّها متساوية من حيث القوة مع الحجة الأولى، لكن مقتضيات وضعها في نص صحافيّ[1] مكتوب تبيّن أنّها أقوى بقليل، لأنّ ما سيأتي يبيّن ذلك، وخاصة بحضور الرّابط الحجاجيّ (لكن) الذي يوجه الحجاج حسب مقتضيات اللّغة العربيّة نحو الأعلى والأكبر، وهذه الحجة الثّانيّة مرتبطة -دائما- بالحياة الفكريّة للنّاقد حيث لن يكتفي فقط بالحرية؛ إن كان متسامحا، بل سيحتفظ

1- أشرنا سابقا إلى أنّ النّصوص التي نحللها في أصلها مقالات صدرت في العديد من الجرائد، ثم جمعت في الكتاب الذي نحن بصدد دراسته.

-أيضا- بحق الصّلابة في عقيدته، كأن يقدم حججا يصعب أو يمتنع دحضها حسب الأحوال.

وتظهر، في آخر السّلم، أكبر الحجج المساندة للمقام المشترك (الوسيلة التي تجعل الكُتّاب ينجحون في عملية النّقد دون تجريح هي التّحلي بالتّسامح) وهي الحجة الثّالثة (03): (التّسامح يمنع النّاقد من الاعتداء على من يخالفه في رأيه ولا يؤمن بمذهبه..) ويبدو لنا أنّ هذه الحجة هي أقرب الحجج إلى تأييد المقام المشترك؛ لأنّ حرية الرّأي الواردة في الحجة الأولى، وصلابة العقيدة في ما بعد، قد لا تخلوان من الاعتداء على الغير، وخاصة في حالات الجدل المحتدم والآراء المناقضة؛ لذلك تأتي هذه الحجة الثّالثة في أعلى السلم، فالتّسامح كفضيلة يدفع النّاقد إلى التزام قواعد اللّباقة والخطاب المتزن الذي لا يصل إلى حد التّجريح أو السّب... لأنّ المتسامح يلتمس الأعذار، ويسدي النّصيحة بطرق تسمح بتَقَبُلها.

ولا بد من الإشارة -هاهنا- إلى أنّنا توصلنا إلى هذا النّوع من التّفسير بمساعدة التّرتيب النّسخي للكتابة التي تظهر فيها الحجج متواليّة، لكن -أساسا- بحضور الوحدة اللّغويّة (لكن) التي تعبّر عن التّوجه التّصاعـــدي للحجج؛ فكلّ ما هـو قبل الرّابط الحجاجي أقل قـــوة مما هـو آت بعدها، وهذا يـــوافق ما هو موجود في الواقع والخطاب معا. وإذا كان السّلم تصاعديّا في المثال الذي درسناه، فإنّه ليس مستبعدا أن يرد ترتيب الحجج تنازليّا، مثلما يبيّنه المثال التّالي:

« أما مستقبل هذا الأدب، فزاهر باسمٌ إن شاء الله، لأن انتشار أدب كل لغة، يتوقف على انتشار تلك اللغة، ولغتنا دوما في تقدم. فإن أمتنا -بفضل الحركة الإصلاحية- أصبحت تدرك واجبها نحو اللغة العربية، وتؤمن بضرورة حياتها؛ فإنها -بعد ما كانت تراها لغة كاسدة، لا ينبغي أن يتعلمها إلا من طلق الدنيا...- أخذت تُقبل على تعليمها لأبنائها وبناتها...»[1].

أخذنا هذا المقتطف من مقالة يتحدث فيها الشّيخ شيبان عن الأدب الجزائريّ ودور معهد ابن باديس -الذي كان أحد أساتذته في ذلك الوقت- في ترقيته والسّمو بمستواه، وقد بدأ هذا المقتطف بموقف، وهو ما يمكن اعتباره المقام المشترك لكلّ الحجج، والمتمثل في (سيكون مستقبل الأدب الجزائريّ المكتوب

1- «المعهد ومستقبل الأدب الجزائري!؟» في عبد الرّحمن شيبان، حقائق وأباطيل، ص 45.

باللّغة العربيّة زاهرا)* ثم أورد مجموع الحجج التي تؤيد هذا المقام المشترك، ويمكن تمثيل تلك الحجج على النّحو التّالي:

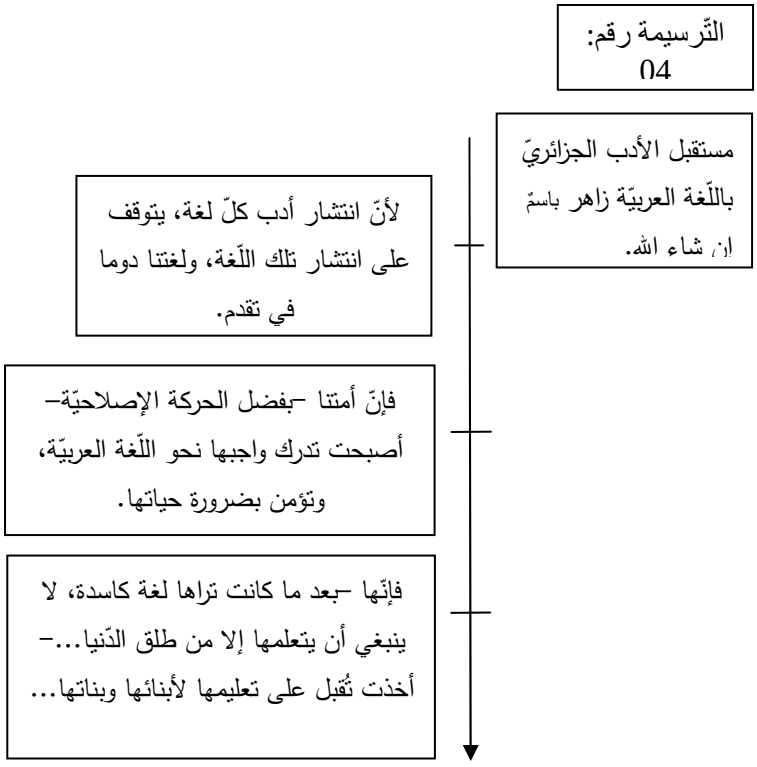

فيظهر، من خلال هذه التّرسيمة رقم (04) أعلاه، أنّ ترتيب الحجج ترتيب تنازليّ، خلافا لما قدمه لنا المثال السّابق، فكاتب المقال قدّم أقوى الحجج في بداية كلامه حيث يرى أنّ مستقبل الأدب الجزائريّ المكتوب بالعربيّة زاهر وباسم؛ أي إنّ الأدب الجزائريّ سيعرف تطورا كبيرا وسيرتفع شأنه؛ لأنّ مقام

*- يجب الملاحظة أنّ تاريخ صدور هذا المقال كان سنة 1949م، ولو نعود إلى مثل هذه السّنوات، سنجد أنّ العربيّة منزويّة كثيرا في الجزائر، جراء السّياسة الاستعماريّة التي لم تبق أي مكان إلا وفرضت فيه ثقافتها ولغتها، أما القلاع القليلة لتواجد العربيّة؛ فكانت في المساجد والكتاتيب، وبعض الأطر الحزبيّة مثل معهد ابن باديس التابع لجمعيّة العلماء المسلمين.

اللّغة العربيّة في تقدم دائم داخل المجتمع، اعتبارا أنّ الحركة الإصلاحيّة تعمل على تحقيق ذلك، وخاصة بعد فتحها لمعهد ابن باديس الذي جعل هدف نشر التّعليم باللّغة العربيّة هدفه الأساسيّ، وهذه الحجة حجة عامة مقارنة بالحجج المتبقيّة، وهذا ما جعلنا نضعها كأقوى الحجج♣، ثم أورد لنا الحجتين الأخريين اللّتين تمثلان تفريعات عن الحجة الأولى، وهما (وعي الأمة بضرورة حياة العربيّة) أولا و(إقبالها على تعليمها للنّشء) ثانيّا، وعلى هذا الأساس كان بناء تراتب الحجج تنازليّا.

3.2: سلم واحد لنتيجتين: قد يستعمل المتخاطبون أثناء تقديم حجاجهم مجموعة من الحجج المرتبة ترتيبا واحدا، مما يفيد أنّ هناك سلم حجاجيّ واحد، ولكن قد يؤدي هذا السّلم إلى نتيجتين وليس إلى نتيجة واحدة، وهو ما يمكن ملاحظته في النّص التّاليّ:

« إيه يوم فاتح نوفمبر... لقد كنت لنا -مثلما كانت بدر للمسلمين الأولين- حقا، إنك رفعت رؤوسنا عاليا بين الشعوب التي كافحت وتحررت، وخفضت رؤوس أعدائنا، وأعداء الخير، والحق والجمال، فجعلتهم لعنة في الأفواه أبد الدهر... إنك أعدت إلينا الأمل في الحياة باسمة كما تتبسم الحورية للشهيد، والأم الرؤوم للوليد!»[1].

ورد هذا الحديث في مقالة نشرها الشّيخ شيبان في مجلة المقاومة الجزائريّة سنة 1956م، حاول فيها إجراء مقارنة بين ما حدث ببدر أيام البعثة النّبويّة، وفي أول نوفمبر 1954م أيام الاستعمار الفرنسيّ للجزائر، فبدأ بالحديث عن غزوة بدر التي كانت تاريخا مفصليّا في إعادة الاعتبار للمسلمين، بعد الاضطهاد الذي مورس عليهم من قبل المشركين، ثم حاول أن يبيّن أنّ أول نوفمبر شيء مشابه لذلك، فقدم الكثير من الحجج، منها ما ورد في المقتطف الذي عرضناه، ويمكن تمثيل ما ورد فيه من حجج بالسّلم الحجاجيّ التّاليّ:

♣- نلاحظ في هذا المقتطف غياب الرّوابط الحجاجيّة التي تعين التّوجيه الحجاجيّ، لكن نعتمد -هنا- على التّنظيم النّسخيّ (الكتابيّ) فأولى الحجج يمكن أن تكون الأقوى، لكن نستند -أيضا- إلى المعرفة الواقعيّة المشتركة.

1- «بين بدر 624م وفاتح نوفمبر 1954م» في: عبد الرّحمن شيبان، حقائق وأباطيل، ص 85-86.

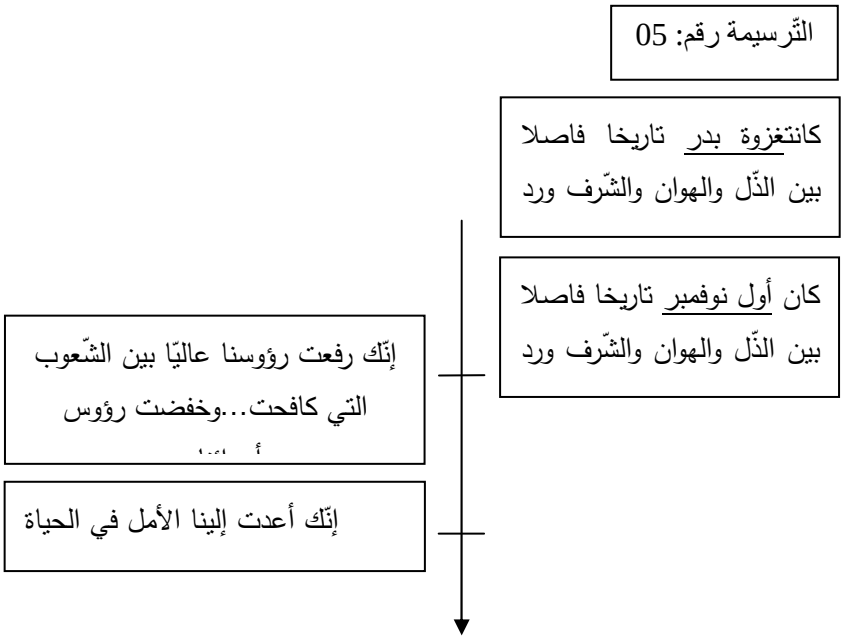

فيظهر أنّ السّلم الحجاجيّ في التّرسيمة رقم (05) تنازليّ، ومتكون من حجتين حيث ذكر الشّيخ شيبان الحجة الأولى التي تبدو لنا أنّها الأقوى؛ والمتمثلة في كون الحدث قد رفع رؤوسنا عاليا؛ لأنّنا دخلنا في قائمة الشّعوب التي انتزعت حريتها؛ وبالتّالي رددنا الإهانة بمثلها للذين تجرؤوا علينا، ثم جاء بحجة ثانيّة، يبدو لنا أنّها أقل قوة من الأولى؛ وهي إعادة هذا الحدث (أول نوفمبر) البسمة إلينا، والملاحظ – هاهنا- أنّ هذا المقتطف لا يحتوي على رابط حجاجيّ يبيّن التّوجيه المرغوب، إنّما القارئ يمكنه أن يتبيّن التّوجيه الحجاجيّ بمعرفته العامة لمرجعيات الحجتين، إضافة إلى أدبيات النّص المكتوب، وهي كلّها تدخل مكونات العقد التّواصليّ الإعلاميّ المكتوب.

ونلاحظ أنّ الحجتين المكونتين للسّلم تؤديان مهمة الإقناع نفسها بالنّسبة للنتيجتين الظّاهرتين على السّلم في التّرسيمة رقم (05) أعلاه، فالحجتان تؤيدان أهميّة معركة أول نوفمبر وغزوة بدر من حيث إنّهما غيرا وجه التّاريخ من سيئ إلى جيد بالنّسبة للمستضعفين، بشكل عام، والذين عانوا من كلّ أنواع البطش والاضطهاد، لذلك يمكن القول إنّ الحجتين تعملان سويا على تحقيق النّتيجتين بالتّساوي؛ ما يحقق الاقتصاد في استعمال الوحدات اللّغويّة في اللّغات.

4.2: السّلالم الجدليّة: قد يحتدم الصّراع الفكريّ بين المتخاطبين، فيجيب أحدهم عن الآخر، وذلك بدحض ما قاله الأول؛ وببناء حجاج جديد مبني على حجج جديدة، ثم يقوم المتخاطب الأخر بالشّيء نفسه، وهكذا دواليك... فتكون الحجج في مد وجزر بين الطّرفين، وقد يكون المقتطف التّاليّ جزءا على ذلك:

«عرفت الجزائر ثورات وأعمالا جهادية كثيرة، من عهد المقاومة الأولى، بقيادة الأمير عبد القادر، لكنها جميعها لم تحظ بالانتصار الحاسم على العدو، وليس السر في تلك النتائج السلبية لخلل في القيادة... ولكن السر في أمور كثيرة، منها ما يرجع للظروف العالمية التي كانت في تلك العهود... على أن الخلل الأكبر في الخيبات التي كانت منيت بها الجزائر، وغيرها من البلاد الإسلامية، خلل ذاتي يتمثل في تدهور البنية الاجتماعية للشعوب الإسلامية...»[1].

أخذنا هذا المقتطف من مقالة صدرت سنة 1992م، كتبها الشّيخ شيبان كرد على تساؤلات النّخب، في ذلك الوقت، عن الأسباب الحقيقيّة لعودة جمعيّة العلماء المسلمين للنّشاط، ودورها في الثّورة الجزائريّة؛ بعدما طاله التّشكيك، وفي إطار عرضه لمنظور الجمعيّة للثّورة الجزائريّة، ورد هذا المقتطف الذي يتحدث عن سبب عدم قيام الثّورة التّحريريّة قبل سنة 1954م، وبمفهوم المخالفة، أهميّة الدّور الإصلاحيّ التّوعويّ الذي قامت به الجمعيّة لتحضير النّخب والمواطنين للثّورة؛ في وضع عرف فشل كلّ الثّورات الشّعبيّة السّابقة، ويمكن تمثيل الحجج الواردة في هذا المقتطف كالتّالي:

1- «ويسألونك عن الجمعية» في: عبد الرّحمن شيبان، حقائق وأباطيل، ص 112

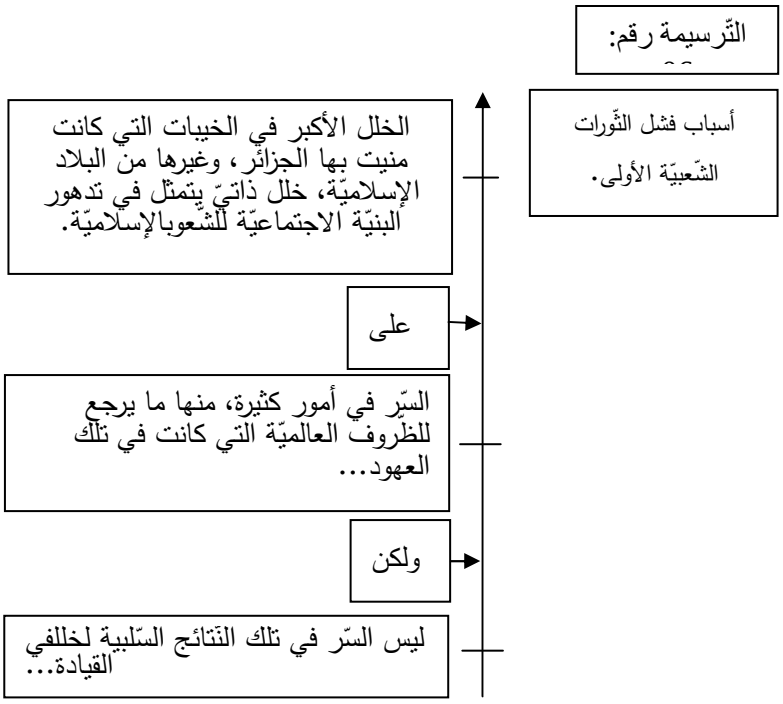

توجه الحجج الواردة في هذا السّلم إلى مقام مشترك واحد هو (فشل الثّورات الشّعبيّة) فكلّ الحجج تؤدي بالضّرورة إلى هذا الفشل؛ لكن الشّيخ شيبان يحاول أن يبيّن أنّ تلك الحجج ليست متساويّة من حيث القوة، ويظهر هذا الطّابع الجدليّ خاصة في تقزيمه للحجة الأولى؛ وجعلها أدنى درجة باستعمال الوحدة اللّغويّة (ليس) التي تدل على النّفي؛ ولا بد من الإشارة إلى أنّ التّداوليّة المدمجة تفترض في هذه الحالات (النّفي) متلفظا آخر قال بالقول المثبت؛ لكن المتكلم – هاهنا- لا ينخرط إلا في الجانب المنفي من القول، كما يجب الملاحظة أنّ حجة (الخلل في القيادة) يمكنها أن يؤدي إلى فشل الثّورة، ومع ذلك، فالمتكلم (شيبان) لم يعترف بوجودها ولا بقوتها، بجعلها، باستعمال النّفي، أدنى الحجج في السّلم؛ ردا –ربما- على قائل فعليّ قال بأهميّة هذا السّبب في فشل الثّورات.

وقدم المتكلم أخيرا، بعد الرّد على هذا القائل المفترض، البدائل التي يراها حججا وافيّة تفسر أسباب فشل الثّورات؛ فاستفتح حججه الأكثر قوة، بالوحدة (لكن) التي سبق أن أشرنا إلى تضمنها للتّوجيه الحجاجيّ التّصاعديّ، فقدم بها الحجة

الثّانيّة، أي الظّروف العالميّة، ثم أضاف حجة ثالثة، هي الأقوى في هذا السّلم، تسير في اتجاه التّصاعد الذي حددته الوحدة (لكن) مع تأكيد المتكلم على هذا التّوجيه التّصاعديّ باستعمال الوحدات (على أنّ الخلل الأكبر) التي تضع الحجة الأخيرة في أعلى السّلم.

ويُستفاد من تحليل هذا السّلم أنّ المتكلم -هاهنا- لم يعط فقط مجموعة من الحجج المؤيدة للمقام المشترك؛ لأنّه لو أراد ذلك لاستعمل الحجة الأولى مثبتة؛ ف(الخلل في القيادة) يؤدي فعلا للفشل، لكن المتكلم فضّل نفيها ردا على كلام سابق، وهو ما يجعل طابع هذا السّلم ككلّ جدليّا -في منظورنا-.

خاتمة: وقفنا في هذه المقالة على بعض استراتجيات الحجاج في الخطاب الإصلاحيّ ممثلا ببعض مقالات الشّيخ عبد الرّحمن شيبان، وقد لاحظنا تعدد استخدامات السّلالم الحجاجيّة؛ مما يبيّن أنّ هناك أنواعا كثيرة من هذه السّلالم في الخطابات، ولا بد من الإشارة إلى أنّ ما قدمناه ما هو إلا عمليّة انتقائيّة في العيّنة، فلا نستبعد إمكانيّة وجود أنماط أخرى من السّلالم التي يمكن أن يستخرجها الدّارس، وهذا إن دل على شيء إنّما يدل على أنّ استراتجيات الحجاج متعددة؛ لكنّها قابلة للتّنميط وفق النّماذج التي قدمناها؛ مثل السّلالم الحجاجيّة الجدليّة والسّلالم المؤيدة لعدة نتائج (مقامات مشتركة)... ويبدو لنا أنّ هذه الأنماط ميدان خصب لم تنهض الدّراسات لاستثماره، وما قدمناه ما هو إلا غيض من فيض حيث يمكن انجاز أبحاث أخرى، والوصول إلى أنماط متعددة من السّلالم الحجاجيّة المفسرة لاستراتجيات الحجاج المستعملة في الخطابات، إضافة إلى ما سلف ذكره، وقفنا على كيفيات استعمال الحجج من قبل الخطاب الإصلاحيّ؛ ولربما أنّ أهم ما يمكن لفت النّظر إليه أنّ هذا الخطاب لا يستعمل القرآن والسّنة فقط، كما جرت العادة في الخطابات الدّينيّة، بل قد يستعمل حججا منطقيّة مبنيّة بناءً متسلسلا، جدليّا في بعض الأحيان، مما يقوي الطّرح الحجاجيّ ويعطيه فرصة أخرى للإقناع؛ ويجعله أكثر سلاسة وولوجا إلى الأذهان.

قائمة المصادر والمراجع:

المصدر:

-عبد الرّحمن شيبان، حقائق وأباطيل، الجزائر: 2009م، دار ثالة للنّشر.

المراجع باللّغة العربيّة:

-سعيد فاهم، معاني ألفاظ الحجاج في القرآن الكريم وسياقاتها المختلفة (السّور السّبع الطّوال أنموذجا "دراسة دلاليّة معجميّة") تيزي وزو/ الجزائر: 2012م، منشورات مخبر الممارسات اللّغويّة في الجزائر.

-طه عبد الرّحمن، اللّسان والميزان أو التّكوثر العقليّ، ط 01، الدّار البيضاء/ المغرب: 1998م، المركز الثّقافي العربي.

-عبد الحميد عبدوس:« في ذكرى الشّيخ عبد الرّحمن شيبان» في البصائر، الاثنين 15-21 شوال 1435هـ /11-17 أوت 2014م، ع: 716.

-محمد سيريج:« الشّيخ عبد الرّحمان شيبان: شهادات ومواقف» في البصائر، الاثنين 15-21 شوال 1435هـ/11-17 أوت 2014م، ع: 716.

المراجع باللّغة الفرنسيّة:

- Julien Longhi, Georges Sarfati, Dictionnaire de pragmatique, Paris: 2011, Armand Colin,

-Oswald Ducrot, Les échelles argumentatives, Paris: 1980, Ed. Minuit,

-Patrick Charaudeau, Dominique Maingueneau, Dictionnaire d'analyse du discours, Paris: 2002, Ed. le Seuil.